أمثلة من الترجمة

Josef H. Reichholf / Johann Brandstetter

Evolution. Eine kurze Geschichte von Mensch und Natur

Carl Hanser Verlag, München 2016
ISBN 978-3-446-24521-1

صفحات **7–20**

Josef H. Reichholf / Johann Brandstetter

التطور

قصة قصيرة عن الإنسان والطبيعة

ترجمة: ترجمة ضياء النجار

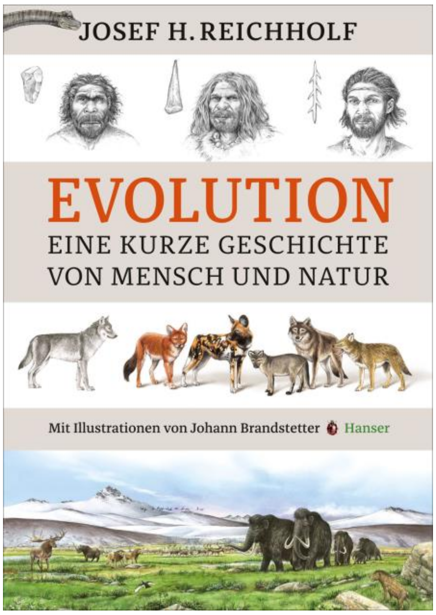

© 2016 Carl Hanser Verlag, München / Arabic Translation: © 2016 Litrix.de

مقدمة

نشأت الحياة على الأرض مما يقرب من أربعة مليارات خلت من الأعوام. وفي العلوم يطلق على الكيفية التي صارت إليها الأمور والكيفية التي نشأنا بها كبشر مصطلح "التطور". ولا يُعنى هذا العلم بأي حال من الأحوال فحسب بالأحفوريات أوبالعظام الرميمة، أو بالديناصورات أو بالإنسان الأول الذي يطلق عليه "إنسان نياندرتال"[1] ، بل بنا نحن البشر الحاليين: كيف نعيش، ما المخاطر التي تواجهنا وأين نسيّر خطانا وأين سنواصل (ربما) التطور، إذ كلما اتسع ما لدينا من إمكانات للتدخل اتسعت أيضا استفادتنا من تلك الإمكانات.

لقد حقق لنا التطور - من منظورنا البشري - أشياء في غاية الجمال والروعة وأخرى بالغة التهديد. إن الريش المزين للطاووس وعصافير الجنة، وأجمل أهازيج الطيور أو شعاب قرون حيوان الأيل المبهرة هي كلها نتاج للتطور. ولغتنا أيضا جزء من هذا. ومنه أيضا الثقافات المتنوعة والديانات.

وعلى النقيض من ذلك تعتبر الأمراض على سبيل المثال من بين التهديدات القائمة. لقد تسبب الفيروسات في ظهور أنفلونزا الطيور المخيفة، وهي بطبيعة الحال لا تنتمي إلى تلك الفيروسات التي تتسلل إلى أجهزة الكمبيوتر. سيكون حتما من قبيل الهراء أن نفترض حدوث مثل هذا الشيء! أو ربما لا؟ ما هي الفيروسات في واقع الأمر؟ لماذا يطلق على برامج الكمبيوتر التي تطلق شرورها "الفيروسات"؟ هل مثل هذا الأمر أيضا من مظاهر التطور؟ تأثيرات التطور في الواقع دائمة وموجود في كل مكان. إلا أننا لا نلحظها إلا إذا حدث أمر ما سيء. كما هو الحال حاليا مع الأمراض المعدية، حيث تتبدل مسببات هذه الأمراض من خلال التطور على نحو أكبر من القدرة على تطوير وسائل مضادة جديدة لها. ولا يقتصر الأمر عادة على فيروسات الأنفلونزا التي تتفوق في حلبة البحث الطبي على الباحثين أنفسهم موجهة لهم لكمة زكامية مؤثرة! بل ينطبق هذا الأمر أيضا على البكتريا التي ظننا أننا قد انتصرنا عليها حيث تخرج في الوقت الحالي عن نطاق سيطرتنا عليها. كما تقوم المضادات الحيوية مثل البنسلينات نفسها بتربية بكتريا لم تعد حتى أقوى الوسائل قادرة على مواجهتها. ونطلق على تلك البكتريا "الجراثيم متعددة المقاومة" وذلك عندما يعجز خليط من مضادات حيوية مختلفة عن التغلب عليها. وهي تهددنا خصيصا في المستشفيات، أي بالذات في المكان الذي يفترض أن نكون فيه في أعلى درجات الأمان. وإذا ما تتبعنا مسار ما طرأ عليها من تغيرات فسيتضح لنا سريعا ما الذي حدث: إنه التطور. إن البكتريا والفيروسات وغيرها من مسببات الأمراض مثل تلك التي تتسبب في نشأة مرض الملاريا تتبدل بسرعة هائلة حيث نغير عن طريق الأدوية ظروفها الحياتية بما يجعلها تتلاءم مع الظروف الجديدة. وهذا هو التطور! أي هذا الجانب من التطور على الأقل الذي يمثل تهديدا حيث مات بسبب الأمراض المعدية من البشر أكثر بكثير ممن ماتوا في الحروب.

يمثل أصلنا في حد ذاته قصة غاية في التشويق. لقد استغرق التطور وصولا إلى الإنسان عدة ملايين من السنين. ولا يزال التطور مستمرا، إذ لا يتوقف التطور أبدا. ونحن لسنا حاليا بالتأكيد آخر ما يمكن أن يُتوّج به تطورنا، بل هو فقط حالة بينية على طريق أكثر امتدادا لنوع الإنسان. الحياة تواصل مسيرتها كما هو معروف. حتى لو انتهت حياة كل فرد بالموت. إننا لا نرغب في النظر بعين اليقين إلى حقيقة أنه من المحتم علينا أن نموت، طالما احتفظنا على أقل تقدير بشبابنا وبصحتنا وطالما قُدّر لنا أن ننظر إلى المستقبل نظرة مليئة بالأمل. وبالرغم من أننا لا نقوم في آخر الأمر بكل ما هو ضروري لكي نعيش أطول مدة ممكنة متسمة بدوام الصحة لأننا في سنوات الشباب نظن بأنفسنا امتلاكنا ما يكفي من القوة ونشعر إلى حد كبير بالاطمئنان إلى أننا نستطيع الإمساك بزمام الحياة، إلا انه عندما تبدأ الشيخوخة في الزحف علينا، عندما يبدأ الوهن والأمراض في فرض كلمتها علينا فإننا نندم على إخفاقات الماضي. وغالبا ما نتوقف تماما عن التفكير في الأسباب التي تجعل الشيخوخة والأمراض الكثيرة تعاملنا نحن البشر على هذا النحو. غير أن قصة تطورنا تجعلنا نفهم أنه يعترينا بعض مظاهر الضعف الجسدية التي تجعلنا عرضة للإصابة بالأمراض ولكنها تجعلنا نفهم أيضا أننا نحمل بداخلنا هذه الميزة المتمثلة في هذا الاحتمال الكامن بأن

[1] نسبة إلى وادي نياندر (Neandertal) بالمقربة من مدينة دوسلدورف الواقعة في غرب ألمانيا الذي عثر فيه عليه (المترجم).

© 2016 Litrix.de

يطول عمرنا إلى نحو غير مسبوق.

إنها حياة تمتد من 70 إلى 80 عاما أو يزيد - وبالنسبة للأفيال ستكون تلك المدة عمرا هائلا. أما الخيول التي تعد إذا ما قورنت بنا أضخم منا كثيرا لا تعيش أكثر من ثلث تلك المدة، أما الكلاب كما هو معروف فأقل من هذا بكثير، حيث تنقضي حياتهم حتى مع توفر أفضل ظروف معيشية لهم عند عامهم العاشر أو الخامس عشر على أقصى تقدير. أما نحن البشر بما لدينا من عمر افتراضي فإننا نشب من الناحية البيولوجية تماما عن الإطار المعتاد. فالسلاحف التي تبلغ عمرا مشابها لعمر الإنسان بطيئة. وحياتها تمر في دعة وهدوء، أما حياتنا نحن فعلى العكس من ذلك فوتيرتها أسرع كثيرا. وفي قوانين الطبيعة هناك قاعدة تقول: حياة سريعة تساوي حياة قصيرة، كما أن البطء سبب في تقدم العمر. فلماذا البشر دون غيرهم يمتد بهم العمر أكثر من الأفيال؟ وهناك فضائل أخرى كثيرة تميزنا كبشر. لكن لدينا أيضا خصوصيات كانت لا يمكن أن تكون أفضل من ذلك.

إن البشرية تتعامل للأسف وكأن ليس كل البشر ينتمون لنفس النوع، بل لأنواع مختلفة غريبة عن بعضها البعض إلى حد بعيد. إن البشر وليست الحيوانات المتوحشة هم أسوأ الأعداء لغيرهم من البشر. هل هذا طبيعي؟ ماذا يقول علم الأحياء التطوري عن هذا الأمر؟ هل الإخفاق بشكل أو بآخر لصيق بنا كنوع أو كشكل من أشكال حياة؟

> يتتمي كل البشر لنفس النوع لكنهم يتحولون دائما وأبدا ليكونوا ألد أعداء بعض. لماذا هذا الأمر على هذا النحو؟ أهو أمر حتمي؟ فلنتأمل إذن في أصل الإنسان على نحو أكثر دقة.

يعالج الكتاب مثل تلك الموضوعات. وهو يتكون من ثلاثة أجزاء. يتناول الجزء الأول بالعرض نحن أنفسنا ونشأة الإنسان والسؤال الخاص بالسبب عن تحولنا إلى ما نحن عليه الآن. وانطلاقا من الخبرات اليومية والقصص المنتشرة في عائلاتنا نحن فإننا سنتشجع لنلقي نظرة إلى الخلف في اتجاه الماضي السحيق. سنعثر من جديد على أسلافنا البعيدين في غابات السافانا الأفريقية وقد أحاطت بهم حيوانات وحشية ضخمة وتعرضوا لظروف لا تزال إلى يومنا هذا ترسم ملامح عالمنا الداخلي. سنُعنى بأحداث تتعلق بتاريخ الأرض والتي أثرت تأثيرا راسخا في طريقنا نحو نشأة الإنسان، ومن بينها تيار الخليج الدافئ[2] ونشأته والعصور الجليدية. وبالنظر إلى تكويننا الجسدي فإننا سنطرح السؤال عن السبب في تحولنا إلى سائرين على قدمين وفي امتلاكنا لمخ بهذا الحجم والذي يسبب عند لحظة الميلاد كل هذه المصاعب. إن أسلافنا البعيدين لم يكونوا ممن يمشون على قدمين ولكن شيء أقرب إلى الشمبانزي. كانوا يعيشون على الأشجار وكانوا لا ينزلون إلى الأرض إلا بين الحين والآخر. وبطبيعة الحال سنتدارس أيضا الإنسان الأول الذي يطلق عليه "إنسان نياندرتال" وسنحاول أن نكشف عن السر عن السبب في انقراضه بالرغم من أن مخه لم يكن أصغر حجما من مخنا نحن، بل يكاد يكون حتى أكبر منه. أليس كبر حجم المخ ضامنا للبقاء؟ أم أن الأمر ليس كذلك؟ وسيتعين أيضا أن نسأل عن السبب في اختلاف مظهر البشر إلى هذه الدرجة من الاختلاف وعن منبع هذا الاختلاف المشبّع بالنزاعات. لقد كلف اختلاف المظهر واللسان عددا أكبر من البشر حياتهم من ذلك العدد الذي تسببت فيه هجمات ما يُطلق عليها الحيوانات المتوحشة. وحتى عدة عقود قليلة مضت كانت البشرية تصنف إلى عدة "أجناس" مختلفة حيث ارتبط بهذا الأمر تصنيفات مثل "الأعلى تقدما" و"المتمدن". ومن كان لا ينتمي إلى هذه التصنيفات كان ينظر إليه على أنه إنسان أدنى[3] (سَبْمان). وعادة ما كان يجري التعامل معه على أنهم "لا إنسان". لم يتم تجاوز العنصرية بأي حال من الأحوال، حيث لا تزال تمثل مشكلة هائلة للبشرية. وتدعم الخصوصيات الثقافية هذه العنصرية. لماذا يتصرف البشر على مثل تلك الدرجة من انعدام الإنسانية، هؤلاء البشر الذين ينظرون إلى أنفسهم على أنهم "تتويج هذا الخلق"؟ وكيف يمكن تجاوز التهميش الذي يتعرض له بشر آخرون؟ بالإضافة إلى ذلك علينا أن نعرف الخلفيات التي أدت إلى ممارسة التمييز ضد بشر آخرين. إن النظرة الأكثر تعمقا في تطورنا قد تساعد في فهم أفضل لأنفسنا.

---

[2] هو أحد أهم التيارات في المحيط الأطلسي وله أثر مهم على المناخ وحركة المحيط (المترجم).

[3] كما كان الحال في عهد النازية التي كانت تنظر إلي أي جنس غير آري على أنه جنس أدنى (سبمان) في مقابل الجرماني الذي كان مثال "السوبر مان" أي الإنسان الأعلى أو المتفوق (المترجم).

بالإضافة إلى ذلك لا يجوز أن يكون هناك محظورات على ضم الثقافات والديانات المختلفة إلى دائرة التأملات. سنعالج في الجزء الثالث من الكتاب الكيفية التي نشأت بها الثقافات والديانات المختلفة وطبيعة التأثيرات التي نجمت عنها. إنها في واقع الأمر تلك التطورات الجديدة العولمية التي تخطت كافة الحدود والثقافات والتي تجعلنا ننظر بأمل عظيم إلى المستقبل، وهو ما يظهره لنا التأمل في التطور الذي يشهده العالم الحديث المترابط شبكيا والكترونيا؛ فلأول مرة على الإطلاق ينشأ حاليا عالم يحتوى البشرية كلها.

وبين هذا وذاك، في الجزء الثاني، سيدور الحديث عن الديناصورات والحيتان، عن العصافير وعن اللغز العظيم المتمثل في الكيفية المحتملة التي نشأت بها الحياة في عالم لم تدب فيه أي حياة. وسيظهر من خلال أمثلة مختارة أنه بمقدورنا تماما المشاركة في متابعة عمليات التطور التي تتم بالخارج في الطبيعة. ولا يتعين علينا من أجل ذلك أن نربي ميكروبات خطيرة أو أن نحوز معارف بيولوجية خاصة. الانفتاح والاهتمام يكفيان. ووقتها سنعايش كيف أمام أعيننا ستواصل الحياة التطور وكيف ستسفر دائما وأبدا عن تنوع جديد.

نحن البشر حالة خاصة بلا أدنى شك في هذا. لكننا ننتمي على نفس الدرجة إلى الحدث العظيم الخاص المرتبط بالتطور. عندما سنفهم إلى حد معقول كيف أصبحنا وكيف تطورت بقية الطبيعة سيكون لدينا حتما القدرة على أن نحكم بشكل أفضل على ما هو مهم لكي نستطيع البقاء في المستقبل. هناك ما يكفي من الأخطاء التي شهدتها عملية التطور ولا يتحتم علينا أن نكون من ضمنها. ومع هذا فإن الخطر قائم؛ فنحن نتعامل مع الطبيعة وبقية الحياة المحيطة بنا على نحو غير مسئول إلى أبعد الحدود. يعلمنا التطور الخشوع أمام الحياة. كما أن التطور يذكرنا بالتعامل بمسئولية تجاه شركائنا في البشرية لمصلحة الأجيال القادمة ومن أجل الحياة نفسها التي هي أعظم القيم لدينا.

يوزيف هـ. رايشهولف، ديسمبر/ كانون أول 2015

© 2016 Litrix.de

الجزء الأول

نشأة الإنسان

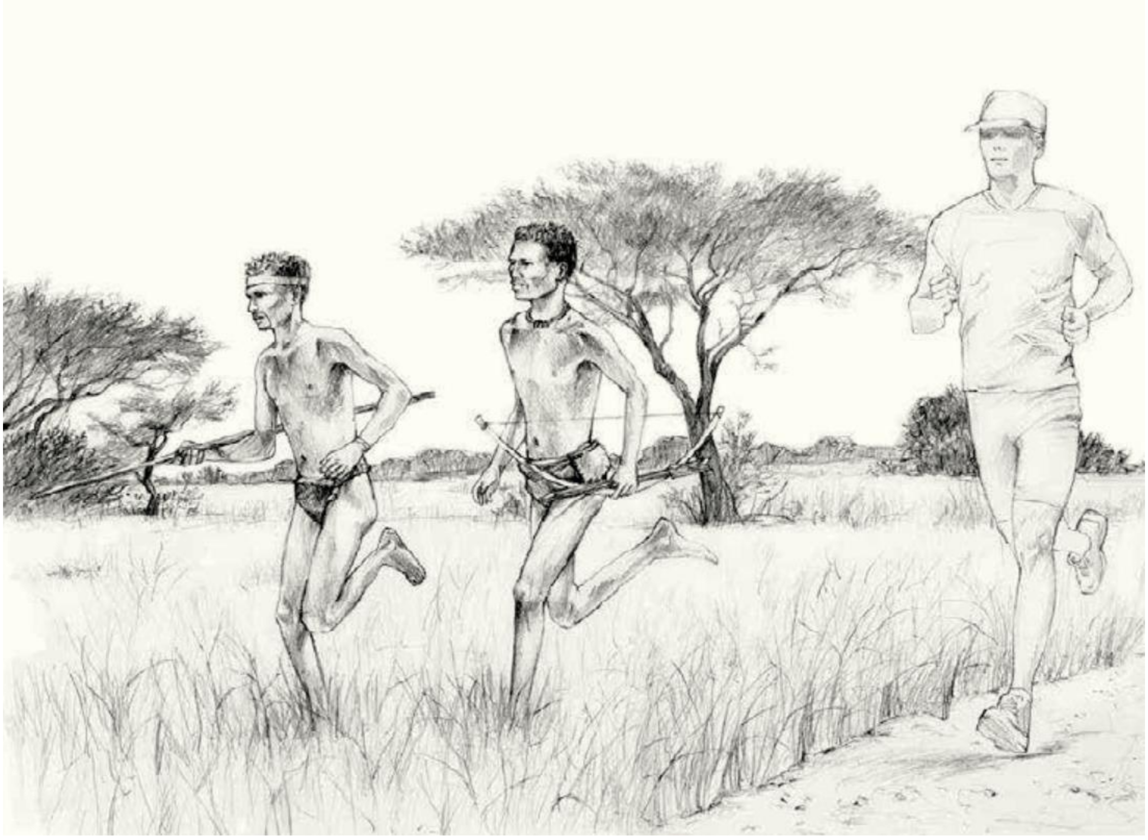

© 2016 Litrix.de

1. كائن شديد الغرابة

نتعرف على البشر من حيث كونهم بشرا على الفور. ونحن نفرقهم بلا مجهود عن إنسان الغاب وعن كافة الكائنات الأخرى. وهذا بالرغم من أن البشر يختلفون في المظهر اختلافا عظيما. فمن ناحية عنصر واحد مثل الطول على سبيل المثال يتفاوت طول البالغين ما بين من يزيد طولهم على المتر الواحد وصولا إلى من يزيد طوله على المترين. وبالنسبة لنا نحن الأوروبيين تبدو لنا بعض الشعوب في منتهى القصر مثل الأقزام الذين يعرفون بالبيغميين (Pygmäen) في غابات الكونغو المطيرة وآخرون يبدون في غاية الضخامة مثل شعب الماساي في شرق أفريقيا. وكلاهما يختلف عنا الأوروبيين وعن الآسيويين اختلافا عظيما في لون الجلد. كما أن التفاوت في أشكال الوجه لافت للنظر هو الآخر. هل يوجد "الإنسان" أصلا؟ هل نقصد بذلك البشرية جمعاء؟ أم أننا نقصد أكثر نحن أنفسنا بما لدينا من حضارة؟ هل نحكم بلا وعي مستندين إلى ما أصبح مألوفا لنا؟ وقتها سيكون بالفعل كثير من البشر "مختلفين" عنا. لكن نحن أيضا عنهم.

ربما كان في مقدور سكان أستراليا الأصليين الذين يطلق عليهم الأبوريجينز أن يظنوا بالأوربيين الذين اقتحموا عليهم فجأة عالمهم المنعزل مما يزيد عن 200 عاما بالتمام والكمال مضت أنهم كائنات فضائية أكثر منهم بشر مثلهم حيث لم يظهر عليهم سوى مظاهر بعيدة الشبهة عما يجب أن يكون عليه البشر العاديون من وجهة نظره سكان أستراليا الأصليين آنذاك. لكنهم على العكس من ذلك كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم "طبيعيون". وفي أمريكا الجنوبية كان الأسبان الغزاة بالنسبة لحضارة الإنكا المتقدمة لا يقلون همجية في شيء عما كان عليه من 15 قرنا من الزمان بالنسبة للرومان المتحضرين الجرمان الذين دمروا إمبراطوريتهم العالمية. فهل "البشرية" إذن ليست سوى تجمع من جماعات مختلفة من البشر لا يكاد يجمعهم خلاف الاحتياجات الأساسية مثل العطش والجوع والجنس والسكن الشيء الكثير؟ إن معظم البشر غريبون عنا لأنهم يتحدثون بشكل مختلف ويفكرون بشكل مختلف ويعيشون بشكل مختلف. أي أنهم بالفعل "مختلفون"، فكيف نتفاهم في أثناء اللقاء مع "الآخرين"؟ هل علينا أن نظهر بمظهر المعطي أم السائل، بمظهر المتوائم أم المتسامح مع الاختلافات؟ لا تكون الإجابات سهلة إلا إذا تعلق الأمر بلقاء غير حقيقي، أي بلقاء نفترض حدوثه نظريا؛ فالحياة الحقيقية أعقد دائما من تصوراتنا الخيالية عنها إذ لا يمكننا أن نعرف ما يفكر فيه ويشعر به وما استدمجه[4] الآخرون في مسيرة حياتهم. وهو ما ينطبق على كافة البشر، بلا استثناء، إذ ليس بمقدور أحد أن يستوعب زخم الحياة الإنسانية، وهو ما يجعل حياة البشر مع بعضهم البعض أمرًا في غاية الصعوبة.

[4] الاستدماج بمفهوم علم النفس هو أحد الوسائل التي بواسطتها يمتص الفرد من مكونات عالمه الخارجي موضوعات كانت أو مشاعر أو عواطف أو معايير أو قيم ويدمجها بداخله وكأنها أصبحت من مكونات ذاته (المترجم).

© 2016 Litrix.de

أصول مختلفة وشباب واحد. توهم الملابس والخلفية الثقافية بوجود اختلاف أكبر بكثير عما هو عليه بالفعل. تجعل الديانات والأيدلوجيات البشر يشعرون وكأنهم ينتمون إلى أنواع غريبة. كما يعزز اختلاف اللغات من صعوبات التفاهم.

© 2016 Litrix.de

لماذا كل هذا على هذا النحو؟ لماذا يا ترى توجد هذه الاختلافات وهذه المشاكل؟ ألم يكن من الممكن، بل قل ألم يكن من الأجدر أن يكون هناك ببساطة لكل البشر لغة واحدة وثقافة واحدة ونفس المظهر إلى حد ما؟ ولو أصبح الحال على هذه الشاكلة لما كان سيكون حتما هناك نزاعات بين الديانات (أي مع "المخالفين في العقيدة" أو "الكفار") وبين الأيدلوجيات والشعوب لأن "الشعوب" لن يكون لها وقتها ببساطة وجود. غير أن في الواقع الذي نعيشه يجري الفصل بين الجماعات بعضها والبعض عن طريق حدود اصطناعية على شكل دول أو يتم تحويلهم من خلال الخصوصيات الثقافية إلى "شعوب". هل النمساويون شعب مستقل لأنهم فقط يعيشون في النمسا، في بلد مميز الحدود في قلب أوروبا؟ وهم ليسوا ألمان بالرغم من أن الألمانية هي لغة البلاد وبالرغم من أن النمساوية بوصفها مجموعة من اللهجات أقرب في الشبه إلى اللهجة البافارية التي بدورها - أي اللهجة البافارية - أبعد شبها من اللهجة الألمانية المعروفة بـ "الألمانية الدنيا" (Plattdeutsch) والتي يجري التحدث بها على سواحل بحر الشمال. وفي سويسرا تعيش ثلاث مجموعات لغوية في بلد واحد والغالبية العظمي من السويسريين يستشعرون أنفسهم على أنهم سويسريون. وهؤلاء السويسريون مثلهم مثل كافة الأوروبيين من وسط وشمال أوروبا ينظرون إلى البشر الذين تعود أصولهم إلى أفريقيا السوداء أو غينيا الجديدة على أنهم أكثر غرابة منهم، بصرف النظر عن البلد الذي تعود أصولهم إليه من بين بلاد القارة الأفريقية. بمختصر القول: إننا نشق على أنفسنا وعلى "الإنسان".

يبدو أن الكلاب لديها مشاكل أقل بكثير مع بعضها البعض، بالرغم من كونها قد جرى تربيتها لتكون أجناسا شديدة الاختلاف. وهنا يظهر على السطح كلمة لا نستعملها على نحو عام جدا استعمالا محايدا مع الكلاب وغيرها من الحيوانات المنزلية فحسب، بل أيضا مع الحيوانات والنباتات. أما مع الإنسان فقد تسببت هذه الكلمة في حدوث كارثة فادحة، إذ غالبا ما ارتبط تصنيف الجماعات البشرية إلى "أجناس" في التاريخ بتقييمات محددة: إعلاء قيمة الجنس الذي تنتمي إليه الذات وخفض قيمة الجنس الذي ينتمي إليه الآخر.

بطبيعة الحال تحتم على الناس أن يطوروا بشكل أو بآخر أساليب حياة واضحة الاختلاف بحسب ما إذا كانوا يعيشون في المناطق القطبية الباردة أو في المناطق الاستوائية، على سواحل البحر أو في الجبال الشاهقة. غير أنه لم يكن يقصد آنذاك بمصطلح "الجنس" أساليب الحياة المختلفة، بل المظهر، أي أن يتحدد من النظرة الأولى ما إذا كان سيجري قبول البشر مختلفي المظهر على أنه لهم قيمة متساوية أم سيجري رفضهم على أنهم "غريبو النوع". ولو لم يتم تقسيم البشرية إلى "أجناس" لما كان أصبح هناك تمييز ضد الآخر، كما كان يُقال، ولظلت البشرية تعيش في سلام. لكن هذا بلا شك - وللأسف - خطأ. إذ أن البشر لا يريدون أن يكونوا "متساويين"، بل مختلفين. وحتى بدون تصنيفهم إلى أجناس فإن البشر يستشعرون أنفسهم بوصفهم ألمان أو فرنسيين أو أتراك أو فرنسيين أو عرب أو صينيين أو هنود أوفي داخل تلك الدول والشعوب (الكبيرة) كما هو الحال في ألمانيا بوصفهم ساكسونيين (نسبة إلى ولاية ساكسونيا في شرق ألمانيا) أو فريزيين (نسبة إلى قبيلة فريز الواقعة في على ساحل بحر الشمال) أو هيسيين (نسبة إلى ولاية هيسن بوسط ألمانيا) أو بافاريين (نسبة إلى ولاية بافاريا في جنوب ألمانيا). يبدو أنه ليس بمقدور البشر أن يظلوا مجرد بشر يعيشون في مناطق مختلفة. وحتى في ظل وجود عادات حياتية متشابهة إلى أكبر حد ممكن فإنهم يريدون أن يختلفوا عبر اللغة، الثقافة والدين عن "الآخرين". إن المساواة" بالنسبة للبشر وهم من الأوهام.

إن الواقع يظهر لنا أوجه التنوع الذي فيه البشر في مكان. فهل يجدُر بالبشرية يا ترى أن تتطور في اتجاه وحدة عامة ومساواة عامة كما منصوص عليه في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: "يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق"؟! ومع هذا فإن هذا لا يعني أنهم بالفعل"متساوون"، بل يعني فقط أن كافة البشر لديهم الحق في أن يحظوا بتعامل

متساوي القيمة. لا يريد البشر أن يكونوا "متساويين"، فالمساواة قد تنتزع ما يتمتعون به من فردية، قد تجعل في آخر الأمر من الفرد نكرة بلا اسم، مجهولا وقابلا دائما وأبدا لأن يحل غيره محله. تحاول أي مؤسسة عسكرية فعل ذلك من خلال ما يطلق عليه "تنسيق" الجنود، حيث يقود "الترتيب في أنساق" هذا في كثير من الأحيان إلى الموت إذا ما وقع المحظور وقامت الحرب.

كل هذا معروف معرفة جيدة؛ فالقوانين والمتطلبات الأخلاقية تُعنى بهذا. لكنها لا تجيب عن السؤال المبدئي: لماذا يبدو الأمر على هذه الشاكلة؟ من أين تأتي الاختلافات؟ ماذا تعني الاختلافات لكينونتنا الإنسانية؟ ماذا تقول لنا تلك الاختلافات عن أصل البشرية وعن مستقبلها؟

إن حكاية البشرية، أو التاريخ، لا تتضمن سوى جزء ضئيل من حكاية نوعنا التي لا تزال مستمرة منذ بداية تكون الإنسان. لقد كان البشر بالفعل من الناحية البيولوجية بشرا حينما بدأ بأولى المباني الحجرية التي شيدوها ما نطلق عليه في الحصة المدرسية "التاريخ". وهو ما حدث قبل نحو 10.000. ولكن نوعنا البشري موجود بالفعل مما يزيد على 200.000 عام تقريبا. فهل كنا في الجزء الأعظم من قصتنا كما يقال "بلا تاريخ"؟ إن القبول بهذا الافتراض سيكون خطأ جسيما، بل أيضا خطأ من أخطر ما يكون، لأنها كانت تلك الأوقات في الماضي السحيق التي جعلت منا بشرا، أي هذا النوع من البشر الذي يطلق عليهم علماء الأحياء الإنسان العاقل (Homo sapiens). غير أن قبلها ولمدة عدة آلاف من السنين وبالتزامن مع الإنسان الخاص بنوعنا كان يعيش بشر آخرون يُحسبون على أنواع خاصة بهم. وأحد هؤلاء البشر اسمه مألوف لنا ونحن نستعمل اسمه في اللغة العامية الألمانية غالبا على نحو سلبي لأنه ُصوّر أو "أعيد تركيبه" بشكل قاتم وساذج المظهر ونقصد به الإنسان الأول المعروف بإنسان نياندرتال.

حجم المخ وحده لا يشي بالشيء الكثير عن الذكاء، فإنسان نياندرتال كان لديه في المتوسط غالبا مخ أكبر حجما من مخنا. ومع ذلك انقرضوا. أما أسلافنا خلافا لهم فقد كتب لهم البقاء. كيف يمكن لنا أن نفهم هذا الأمر ؟

غير أن امتلاك إنسان نياندرتال في المتوسط بوصفه أحد بشر العصر الجليدي لمخ أكبر بعض الشيء من مخنا يدفع بنا إلى أزمة تأويلية ليست هينة، إذ أننا نميل إلى أن نجعل حجم المخ الكبير مساويا لمستوى عظمة الذكاء، على نحو مشابه لسعة تخزين الحواسب الآلية. وقد انقرض إنسان نياندرتال، ومن كتب له البقاء كانوا أسلافنا الذين يعودون إلى العصر الجليدي الأخير والذين كانوا يمتلكون مخا أصغر، حيث انتشروا في كافة أرجاء الأرض. فهل كانوا أكثر ذكاءً من إنسان نياندرتال؟ والعظام القديمة للإنسان نياندرتال الموجود منها بكثرة معقولة على هيئة أحفورية لا تكاد تكشف لنا أي شي عن هذا الأمر إذ أن الأحفوريات لا يمكن أن "يعاد تركيبها" على نحو له مغزى معقول أي أن يُعاد "بث الحياة" فيها إلى حد ما إلا إذا كنا نعرف لها كائنات حية شبيهة بها. فما معنى حتمية أن نبدأ بأنفسنا نحن عندما نحاول التنقيب عن أصولنا؟ إن صفاتنا وخصوصياتنا تتيح لنا ما يكفي من إمكانات منهجية لتحقيق ذلك الأمر.

لا تكشف العظام القديمة عن أصولنا التي تعود إلى أزمان ماضية موغلة في القدم فحسب؛ فالماضي البعيد يقبع أيضا بداخلنا، في اللحم وفي الدم، في المخ وفي السلوك، حيث يتواصل ظهور آثار تلك العصور السحيقة على الإنسان في الحاضر. إن حياة العصر الحجري إذن لم يتم تجاوزها بشكل نهائي منذ أن تحول الإنسان إلى كائن مقيم، حيث تطل علينا العصور السابقة لها برأسها، سواء توافق هذا معنا أم لا. لقد اكتمل تكون الإنسان عبر فترة زمنية طويلة لا يكاد يكون من الممكن تصورها امتدت إلى ملايين السنين. إن الماضي البعيد سيظل

يشغلنا دائما وأبدا؛ فنحن لا نعرف إلى الآن كل شيء عن فترة التكوين الخاصة بنا. وكل عام يضاف إلى ما نعرفه أدلة جديدة. بعضها يُكمل الموجود حاليا، وبعضها الآخر يرغمنا على تصويب تصوراتنا. وهو أمر طبيعي جدا. فهكذا تعمل العلوم الطبيعية؛ فهي لا تنطلق من إيمان بمعلومات راسخة، لا تنطلق من أن الأمر هكذا ويجب أن يظل هكذا وليس شيئا آخر. سيظل العلم منفتحا دائما على معارف جديدة أفضل. إن العلم مغامرة تؤدي بنا إلى الخارج حيث المجهول. بالعلم نريد استكشاف العالم وأن نفهم الحياة وأنفسنا. كيف صرنا إلى ما نحن عليه الآن.

© 2016 Litrix.de